ومستعمراتها وتجارتها الشرقية. وقد تقدمت الفنون والآداب في هذه الفترة، وظهر الفنانون والادباء من امثال فالاسكويز، وموريللو، وجيزويت ماريانا وغيرها.

وعلى الرغم من تدفق الثروة وازدهار الفنون والآداب بدأت اسبانيا تتدهور وتفقد سطوتها ونفوذها في أوربا بسبب العوامل التالية:

١- ان الثروة الضخمة التي تدفقت الى اسبانيا من ما وراء البحار لم يستفد منها الشعب الاسباني، انما استفاد منها فئة قليلة من التجار والنبلاء، وكان اغلب المستفيدين هم التجار والرأسماليين الاجانب وخاصة الهولنديين والالمان وبالدرجة الثانية الايطاليين كما لاحظنا ذلك من قبل.
٢- كان الصناع والفنانون المهرة من الطبقة الوسطى اغلبهم من الموريسكوس (اي المراكشيين بقايا العرب في اسبانيا المعتنقين المسيحية)، وقد اضطهدتهم الحكومة الاسبانية بغية تحقيق الوحدة القومية والدينية، ثم اجبرتهم على ترك البلاد سنة ١٦٠٩. وبها فقدت اسبانيا الطبقة الصناعية التي كانت باستطاعتها الاستفادة لتطوير الرأسمالية فيها.
٣- ان الضرائب الكثيرة المفروضة على الشعب ادت الى اضعاف الاحوال الاقتصادية للشعب الاسباني.
٤- تدخل اسبانيا في الشؤون الاوربية ودخولها في حرب الثلاثين سنة ولمدة خمسين سنة بالنسبة لإسبانيا، ادى الى نتائج وخيمة بحيث خرجت اسبانيا من الحرب دولة مغلوبة على امرها وفقدت مستعمراتها وجميع ثرواتها.
٥- كانت الملكية المطلقة والادارة المركزية سببا آخر لتدهور اسبانيا. فلا يستطيع شخص الملك انجاز كل الامور الخاصة بهذه الامبراطورية الواسعة، ولما كان ملوك اسبانيا بعد فيلب الثاني ضعفاء عينوا حكاما اتصفوا بالضعف وعدم الكفاءة ولهذا شل الجهاز الحكومي وتدهور بعد منتصف القرن السابع عشر، ويعزى ضعف ملوك اسبانيا الى التزاوج بين ابناء وبنات العم من فرعي عائلة هبسبرگك الاسبانية والنمساوية. فقد كان شار الخامس وفردنند الاول شقيقين، وقد تزوج فيلب الثاني ابن شارل الخامس بنت ابن عمه الامبراطور مكسمليان الثاني ابن فردنند الاول، بينما تزوج مكسمليان اخت فيلب الثاني، ولهذا كان فيلب الثالث ابن فيلب الثاني حفيد مكسمليان. وهكذا استمرت المصاهرة بين العائلتين بحيث ان شارل الثاني ابن فيلب الرابع اخر ملك من عائلة هبسبرگك الاسبانية كان مريضا طوال مدة حكمه التي دامت قرابة اربعين سنة وانتظر ملوك أوربا موته بفارغ الصبر سنة ١٦٩٧.

الفصل الخامس

انجلترا في العصر الحديث

تمهيد

في علم ١٠٦٦ اغار وليم William دوق نورماندیا Duke of Normandy على انجلترا ثم توج ملكاً عليها بعد ان اتخذها مقراص له. وكان يعرف باسم وليم الفاتح، واستطاع أن يوجد بها ملكية قوية، وابقى على مجلس العقلاء الذي كان يعقد من كبار الملاك من الاشراف ورجال الدين ليستشيرهم الملوك في امور الدولة المهمة، واطلق عليه اسم المجلس الاعظم. وقد اتسعت الاملاك الإنجليزية في عهده فى فرنسا وادى ذلك إلى ما يعرف باسم حرب المائة عام.

استمرت الحالة كذلك في انجلترا إلى ان اعتلى العرش الملك يوحنا (جون) John ابن هنري الثاني (١١٨٩- ١٢١٦) وتخبط في سياسته فكرهه الانجليز والفرنسيون على السواء وغضب عليه البابا. وفي عام ١٢١٥ اتحد الاشراف ورجال الدين وثاروا في وجهه وتغلبوا عليه وارغموه علة منحهم (الماجنا كارتا Magba Carta العهد الاعظم) والذي قيد سلطة الملك التنفيذية والتشريعية والقضائية، وكان ذلك اساس حرية الشعب الإنجليزي.

ويشتمل العهد الاعظم على (٦٣) مادة كان العدد الاكبر منها خاصا بحماية امتيازات الأشراف ولم يمنح الشعب أية حقوق، وأهم ما جاء فيه:

١- ليس من حق الملك فرض أية ضريبة- عدا الهبات الإقطاعية- إلا بموافقة المجلس العظم، وتعد هذه المادة منشأ سيطرة مجلس العموم البريطاني فيما بعد وفيها تقييد لسطلة الملك التشريعية.
٢- يتمتع كل فرد من الأفراد بحماية قانون البلاد العام له، فلا يتم القبض على أي شخص أو سجنه إلا بعد محاكمته بموجب قانون البلاد أو بعد محاكمته أمام نظريه. وفي هذه المادة تقييد لسلطة الملك التنفيذية والقضائية، كما أنها أساس حرية الفرد، ومنشأ نظام المحلفين في انجلترا.
٣- محاكمة المعارضين لحكومة الملك والذين يؤيدون السطالبين بالعرش بتهمة الخيانة.
٤- منع النبلاء من جمع الاتباع.
٥- فرض السيطرة الملكية على شؤون الصناعة.

ويمكن القول ان حكومة هنري السباع المركزية القوية التي كانت تعمل لمصلحة العشب وتتماشى مع رغباته لم تكن حكومة استبدادية.

اما عن السياسة الخارجية في عهد هنري السابع فيلاحظ انه لم يهتم بالحروب، واتجه إلى التقارب مع إسبانيا عن طريق مصاهرة البيت المالك فيها، ففي عام ١٥٠١ زوج ابنه آرثر بالأميرة كاترين ابنة فرديناند ملك إسبانيا، ولم يدم هذا الزواج طويلاً حيث توفي آرثر بعد خمسة شهور من زواجه. وقام هنري السابع بتزويج ابنه الثاني من زوجة اخيه الراحل برغم مخالفة ذلك لقوانين كنيسة روما، ومع ذلك فقد منحه البابا إذناً بذلك، كذلك وطد العلاقة التي تربط بين العرش الإنجليزي وعرش اسكتلندا عام ١٥٠٣ حيث تزوجت ابنته مرجريت من جيمس الرابع ملك اسكتلندا. وكان ذلك الزواج نواة للتفكير في توحيد المملكتين.

اولاً: هنري الثامن ١٥٠٩-١٥٤٧

خلف والده في الحكم بعد وفاته، وقد منح البرلمان الملك هنري الثامن سلطة عظيمة كادت تكون مطلقة ولكنه مع ذلك كان يقدر البرلمان وخطره فلم يبت في أمر هام إلا بقرار منه، واتبع هنري الثامن هذه السياسة لكي يعطي أعماله صيغة قانونية من جهة وليقف على حقيقة الشعور العام من جهة اخرى. ومنذ عام ١٥٢٩ حتى وفاته عام ١٥٤٧ كان البرلمان يجتمع سنوياً باستثناء ثلاث سنوات فقط.

وكان هنري الثامن على استعداد للقيام بأعمال في الخارج يرفع بها اسمه واسم بلاده، وكان المحرك لسياسته وزيره الكاردينال توماس ولزي Thomas Wolsey لمدة أربعة عشر عاماً (١٥١٥-١٥٢٩) وكان توماس ولزي من كبار رجال الدين ووصل إلى رتبة نائب البابا وبذلك أصبح مسيطراً على الكنيسة الإنجليزية. وقد أقحم ولزي انجلترا في النزاع الإيطالي. كما ناصر هنري الثامن ضد فرنسا في الحلف المقدس عام ١٥١١، وقامت قوات إنجليزية بغزو فرنسا وحققت بعض الانتصارات على الأراضي الفرنسية.

وفي عام ١٥١٣ خاضت انجلترا عدة حروب خارجية ضد فرنسا، ثم تجددت في عامي ١٥٢٢، ١٥٢٥ إلى ان تهادنت فرنسا مع هنري الثامن على ان تدفع له إتاوة سخية، وكذلك حاولت اسكتلندا في عهده غزو انجلترا لكنها هزمت وقتل ملكها عام ١٥١٣. وقد قبلت انجلترا الهدنة مع اسكتلندا شريطة إلا تمد المساعدة لفرنسا.

وقد انحاز هنري الثامن إلى إسبانيا ضد فرنسا بتأثير من سياسة ولزي، ولكن عندما حدثت واقعة بافيا Pavia عام ١٥٢٥ التي انهزم فيها فرنسوا الأول ملك فرنسا ووقع اسراً فقد حول هنري الثامن من تحالفه إلى عدوته فرنسا احتفاظاً بمبدأ التوازن الدولي، ومع ذلك فلم تستطيع انجلترا تحقيق أية مكاسب من اقحام نفسها في هذه الحروب.

وعلى الرغم من ان هنري الثامن كان يعارض حركة مارتن لوثر الإصلاحية وكتب رسالة ضمنها آراءه معارضاً فيها مذهب لوثر عام ١٥٢١ مما دعا البابا إلى منحه لقب حامي حمى العقيدة، إلا أنه ولأسباب شخصية ألقى بكل ثقله في حركة تأييد الإصلاح الديني فقد كان راغباً في طلاق زوجته كاترين الارجوانية التي ولدت له عدداً من الاطفال لم يعش منهم سوى الاميرة ماري ولم تنجب له ولداً يكون ولياً للعهد، كما انها كانت اكبر منه سناً ولا تشاركه في نوازعه وميوله الشخصية التي كانت تميل إلى المرح، هذا فضلاً عن تعلقه بحب آن بولين Anne Boleyn احدى سيدات البلاط ووصيفة الملكة، ومن هنا كان عزمه على التخلص من الملكة ليتزوج من الوصيفة.

ولما كان ذلك يتطلب موافقة البابا كلمنت السابع كان لا بد من ايجاد سبب يستند اليه البابا في اصدار قرار بعدم شرعية زواجه من كاترين، وقد ساءت الامور بعد اسر القوات الاسبانية للبابا في عام ١٥٢٧ واصبح خاضعاً للنفوذ الامبراطور شارل الخامس ولا يسعه اغضابه.

وقد اخفق الكاردينال ولزي في الحصول على قرار البابا، وكان هو صاحب الرأي في استصدار هذا القرار ولذلك استغنى الملك هنري عن خدماته حتى ان وفاته عام ١٥٣٠ منعت من محاكمته بعد عزله ومصادرة املاكه وحل محله توماس مور Thamas More عام ١٥٢٩ فرفعه إلى اعلى المراكز ولكنه لم يلبث ان ارسله إلى الموت بعد ان امتنع عن تأدية القسم بالولاء للملك كرئيس اعلى للكنيسة الإنجليزية.

وأشار خليفته الكاردينال توماس كروموِيل Thomas Cromwell على الملك بالانفصال عن كنيسة روما وفصل كنيسة انجلترا ووضعها تحت سيادة الملك شأنه في ذلك شأن الامراء الالمان الذين تخلصوا من سلطات البابوية ونبذوا كنيسة روما وانشأوا كنائس اهلية.

وقد وافق الملك على ذلك لتحقيق اهدافه في طلاق كاترين والزواج من آن بولين واستقلال الكنيسة الإنجليزية، وان يكون رئيسها ومنع ارسال الاموال إلى كنيسة روما لمصلحة خزانته وبذلك يصبح صاحب السادة على جميع رعاياه بما فيهم رجال الكنيسة وازاء ذلك عين الملك توماس كروموِيل نائباً عنه في الامور الدينية فاخذ يعمل على محو الاديرة من البلاد ومصادرة الاراضي الكنيسة.

وكان الشعب الإنجليزي في الديني بعد ان ظهرت المساوئ العديدة في الكنيسة الإنجليزية وايد الشعب الملك في مسعاه لتدعيم سلطانه خاصة وان حركة الإصلاح في انجلترا لم تفكر في مهاجمة العقيدة الكاثوليكية أو المساس بها كما تحمس البرلمان لتأييد الملكية في الإصلاح لان الملك لم يتعرض بسوء للكاثوليكية وظل الحال كذلك إلى ان انحازت اكثرية الشعب للمذهب الجديد واقدم خلفاء هنري الثامن على ادخال البروتستنتية إلى البلاد.

وأولى البرلمان الإنجليزي عنايته للإصلاح الديني فقد انعقد سبع سنوات متتالية لهذه الغاية من نوفمبر ١٥٢٩ حتى اطلق عليه برلمان الإصلاح أو برلمان السبع سنوات، وقد اصدر عدة قوانين كان هدفها مساوئ الكنيسة واخضاع رجالها في انجلترا لسلطة الملك ومنها:

١- قانون بمنع الكنيسة في انجلترا من التصرف في شؤونها بغير موافقة الملك.
٢- قانون تحريم تعيين الاقارب في الوظائف الكنسية.

وتأكيداً على سيادة الملك هنري الثامن على الكنيسة الإنجليزية واستقلالها عن كنيسة روما فقد اصدر الملك مرسوماً في عام ١٥٣٣ بتعيين توماس كرانمر Thomas Cranmer رئيساً لاساقفة كنتربري، وعندما رفض البابا الموافقة على تعيينه لم يعبأ الملك بذلك. وفي مايو ١٥٣٣ استصدر من كرانمر اعلاناً بإلغاء زواجه من كاترين والموافقة على زواجه من آن بولين.

وجاء رد البابا على ذلك ببطلان حكم طلاق هنري الثامن من زوجته كاترين، كما اصدر قرار الحرمان ضد الملك الذي كان قد تزوج سراً من آن بولين قبل موافقة كرانمر وانجب إليزابيث من آن بولين وجعل إليزابيث وريثة العرش من بعده وألغى حق ابنته ماري من كاترين على اعتبار انها ولدت من زوجة غير شرعية.

وقام البرلمان الإنجليزي بخطوة جريئة عندما قطع جميع الروابط بين كنيسة انجلترا وكنسية روما، وصدق في عام ١٥٣٤ على زواج الملك هنري الثامن من آن بولين وعلى عدم قانونية زواجه من كاترين، كما اصدر في نوفمبر من نفس العام قانوناً باسم (قانون السيادة العليا) نص فيه على ان الملك هو الرئيس الاعلى للكنيسة الإنجليزية وله كل السلطات الروحية والقانونية التي كان الباباوات يتمتعون بها في انجلترا ومعاقبة كل من يتعرض لشخص الملك وحقوقه، ثم صدر قانون حل الاديرة، وتبعه قانون حل الاديرة الكبيرة.

وترتب على ذلك توجيه ايراد هذه الاديرة إلى خزينة الملك، بالإضافة إلى ما صودر من ايراد الكنيسة في اراضيها وممتلكاتها والتي بلغت جميعها ما يقرب من خمس الاراضي الزراعية في البلاد، وقد وجه الملك هذه الاموال إلى تقوية الدولة فانشأ اسطولاً قوياً وانشأ حوضاً لبناء السفن ومدرسة

للبحارة وحصن الشواطئ وساعدته في الحرب ضد فرنسا في الفترة من ١٥٤٣، وبدمج بلاد الغال في انجلترا ونظامها الحكومي وتقسيمها الاداري، وشرع في تنظيم ايرلندا، وحدد بين شمال انجلترا وجنوبها.

وفي عام ١٥٣٩ اعلن هنري الثامن- بصفته سيداً على الكنيسة- العقائد الاساسية للإنجليز فيما يعرف بقانون المواد الست والتي وافق عليها البرلمان وتتلخص في الاعتراف بالوجود الفعلي في القربان، وعدم زواج رجال الكنيسة، وفوائد اقامة حفلات القداس، واهمية عملية الاعتراف، وتناول القربان المقدس بطريقة واحدة، وتقرر ان تكون عقوبة عدم الاعتراف بالمادة الاولى الحرق، اما المواد الاخرى فعقوبتها السجن والمصادرة اولاً ثم الموت اذا تكرر ذلك الامر، ولكن الملك ظل يعدل في المواد المختلفة حتى عام ١٥٤٥ حيث نشر في نهاية الامر ما يعرف بكتاب الصلوات.

اما عن وراثة العرش من بعده فنجد ان الملك هنري الثامن تخلص من زوجته آن بولين وتزوج من بعدها جين سيمون وثلاث اخريات متتاليات. وقد انجب من جين سيمون ابنه ادوارد، واستصدر قانوناً من البرلمان بجعله ولياً للعهد فاذا مات من غير وريث خلفته ماري بنت كاترين فان لم يكن لها وريث خلفتها اختها إليزابيث بنت آن بولين، وهكذا اعترف القانون بشرعية بنوة ماري، وقد توفي هنري الثامن في عام ١٥٤٧ وخلفه ابنه ادوارد، ونظراً لصغر سنه فقد قام والده قبل وفاته بتعيين مجلس لوصاية وادارة شؤون الحكم.

ثانياً: إدوارد السادس ١٥٤٧- ١٥٥٢

خلف ادوارد اباه هنري الثامن، وكان عمره قد تجاوز التاسعة ببضعة اشهر، وكان قد نشأ نشأة بروتستنتية. وكان خاله ارل هرتفورد وصياً عليه وكان من المؤيدين لحركة نحه الملك ادوارد لقب دوق سمرست Duke de Sommerset واطلق عليه صاحب الحماية على المملكة. وقد ألغى سمرست كل القوانين التي اضطهدت البروتستنت، واغلق كثيراً من كنائس الكاثوليكية وحول دخلها إلى خزينة الملك، كما سارت حركة الإصلاح الديني في انجلترا شوطاً بعيداً في عهد ادوارد السادس. وفي عام ١٥٥٢ اصدر كتاب الصلوات العامة باللغة الإنجليزية والذي اعده كرانمر بمساعدة بعض المصلحين. وقد طبع الكنيسة البروتستنتية بطابع قومي وجعل الفردية وحرية الاعتقاد اساساً للبروتستنتية الإنجليزية.

لم يستمر دوق سمرست في منصبه طويلاً، فقد واجه العديد من الصعوبات منها العداء المستمر بين بلاده وفرنسا والاضطرابات الداخلية التي نشأت عن حركة الإصلاح الديني والاحوال الاقتصادية السيئة لصغر المزارعين حيث اتجه اصحاب المساحات الزراعية الكبيرة إلى تحويلها إلى مراع وتسويرها لتربية الاغنام لتصدير اصوافها، ونتج عن ذلك استيلاؤهم على الاراضي المجاورة لصغار المزارعين مما ادى إلى حدوث اضطرابات خطيرة، كما سخط عليه كبار الملاك لعدم قمعه لهذه الاضطرابات مما ادى إلى القبض عليه وخلعه من منصبه عام ١٥٤٩ واعدامه عام ١٥٥٢.

ومكافأة من الملك ادوارد لاحد كبار الاشراف من كبار ملاك الاراضي والذي تمكن من اخماد ثورة الفلاحين فقد منحه لقب دوق نورثمبرلند Duke of Northumberland وحل محل دوق سمرست، كان من دهاة السياسة. وقد تظاهر بالتمسك بالبروتستنتية تماشياً مع الملكية ولأن غالبية الوزراء يدينون بهذا المذهب، وحاول دوق نورثمبرلند احداث تغيير في نظام الوراثة بعد الملك ادوارد السادس الذي اشرف على الموت عام ١٥٥٢ وذلك بأن تلى العرش بعده ليدي جين جراي وهي حفيدة احدى شقيقات الملك هنري الثامن وكانت زوجة لإحدى ابناء الدوق نورثمبرليد وذلك بحجة ان ماري وإليزابيث ابنتان غير شرعيتان.

وقد باءت مؤامرة دوق نورثمبرلند بالفشل لان الشعب الإنجليزي لم يكن راضياً عن هذه الخطوة، فقد كانت للوريثة الشرعية ماري انصار كثيرون ممن يدافعون عن مبدأ شرعية العرش القانونية، وتولت الحكم صاحبة الحق فيه الاميرة ماري ابنة هنري الثامن من زوجته الثانية كاترين الارجونية.

ثالثاً: الملكة ماري Mary ١٥٥٢- ١٥٥٨

اتخذت ماري عدة قرارات فور توليها العرش بعد وفاة اخيها الملك ادوارد السادس، وكان من اهمها: اعادة العلاقات مع الكنيسة الكاثوليكية في روما، وإلغاء القوانين الدينية التي صدرت في عهد الملك السابق مما يدل على انها كانت شديدة التدين والتمسك بالكاثوليكية. كما انها تزوجت من فيليب الثاني ملك إسبانيا اشد الملوك تعصباً للكاثوليكية عام ١٥٥٤.

واثار ذلك الزواج غضب الشعب الإنجليزي لما كان يحمله من بغض للإسبان. وقد تمكنت الملكة ماري من القضاء على الثورة التي تزعمها السيرتوماس ويت Thomas Wyatt وتم اعدامه واعدام جين جراي رغم انها لم تكن لها دور في قيام الثورة.

وشهدت انجلترا في عهدها نوعاً من الاضطهاد الديني للبروتستنت لم يسبق له مثيل في التاريخ الإنجليزي فارتكب الفظائع ضدهم من سجن وتقتيل واحراق حتى لقبها البعض بماري السفاحة، فكانت فترة حكمها حقبة خطيرة من الاضطهاد الديني لم يشهد انجلترا له مثيلاً من قبل، كما كان زواجها من فليب الثاني ملك إسبانيا شرماً عليها وعلى البلاد فقد كان الشعب غير راض عن تبعية انجلترا لإسبانيا ومن ثم فقد غادر زوجها انجلترا إلى الاراضي المنخفضة ثم عاد إلى تحريض الملكة على مشاركته في الحرب ضد فرنسا. واسفرت هذه الحرب عن استيلاء فرنسا في عام ١٥٥٨ على ميناء كاليه الذي كان الانجليز قد اهملوا تحصينه.

وتوفيت ماري قبل ان تنجب من فليب مما كاد ان يؤدي إلى كارثة خطيرة للشعب البريطاني باعتبارهما اجنبيان وغير بريطانيين. وقد خلفتها على العرش اختها إليزابيث.

رابعاً: الملكة إليزابيث Elizabeth ١٥٥٨- ١٦٠٣

كانت الاحوال في انجلترا مضطربة عندما تولت إليزابيث الحكم، وهي في سن الخامسة والعشرين، فقد كانت انجلترا تعاني من التبعية التي ناءت تحت اعبائها اثناء حكم ماري تيودور ووقوعها بسبب زواجها من فيليب الثاني ملك إسبانيا فريسة سهلة في يد إسبانيا، كما عانت من مشاكل الانقسامات الدينية التي تسببت فيها ماري تيودور، فضلاً عن اضطرابات ميزانية الدولة، وضعفت قوتها الحربية، والإضافة إلى افتقار البلاد إلى زعماء وقادة، للقيام بأعباء الحكم وقيادة الدولة في الحرب، ولذلك اطلق المؤرخون على النصف الثاني من القرن السادس عشر في انجلترا عصر إليزابيث ففيه نمت القومية البريطانية واصبح لبريطانيا السيادة البحرية التي ساعدت على رقي انجلترا وعظمتها، وفيه توطد نظام الكنيسة الإنجليكانية، واتسع النشاط البرلماني، وازدهرت الحياة الادبية. وقد يرجع ذلك إلى قوة ارادة الملكة ومشاركتها الفعلية في حكم البلاد واستعانتها برجال أكفاء.

ومع أن مان كان نادراً في عهد إليزابيث إلا انه تميز بالإخلاص للمكلة والولاء ومن ثم فإن الملكة لم تجد صعوبة في موافقة البرلمان على ما ترغب من امور. وكانت الملكة تتبع سياسة الحل الوسط معتمدة في ذلك على البرلمان باتخاذه أداة لتنفيذ هذه السياسة، وانتهت هذه السياسة بتدعيم صرح الكنيسة الإنجليكانية أو ما عرف بنظام إليزابيث الكنائسي وهو النظام الذي يستند إلى قانونين:

الأول: قانون السيادة العليا The act of supemiercy: الذي أكد على سيادة الملك العليا في جميع الشؤون الدينية والزمنية، وإلزام رجال الدين بأن يقسموا يمين الولاء والاعتراف بسلطان الملكة في الشؤون الكنيسة وعدم الخضوع لأية سلطة أجنبية في كافة الشؤون الدينية والقضائية، ومعاقبة المعارضين له وكل من يقبل الخضوع لأية سيادة أجنبية في الشؤون الدينية أو الزمنية.

الثاني: قانون المذهب الواحد The act of uniformity: والذي أقر نوع العبادة التي تضمنها كتاب الصلاة الثاني الذي صدر عام ١٥٥٢ في عهد إدوارد السادس مع إدخال تعديلات في تفصيلات العقيدة تسهل للمعتدلين من البروتستنت والكاثوليك أن يقبلوه، وحدد القانون الرأي في مسألة القربان، واعتبر زواج القسيس شرعياً مع عدم تشجيعه، وطلب من القساوسة الاعتدال في ملابسهم بحيث تكون بسيطة متواضعة.

وهكذا فإن نظام الكنيسة الإنجليكاني كان كاثوليكيا في الظاهر بورتستنتي العقيدة وإذا كان المعتدلون من البروتستنت قد وافقوا على النظام الجديد على العمل بالتدريج على أن يتفق مع عقائدهم وعرف هؤلاء بالمتطهرين Puyitans، فقد لقى هذا النظام في البداية معارضة شديدة من جانب البروتستنت المتطرفين الذين عرفوا بالانفصاليين Separtsts كما عارضه المتعصبون من الكاثوليك حتى أن بعضهم عمد إلى التآمر على حياة الملكة إليزابيث للتخلص من هذا النظام الذي كانت تحميه وكانوا يتطلعون إلى المساعدة الخارجية من فليب الثاني ملك إسبانيا وباب روما.

ولما كانت كل من الدولتين الكاثوليكيتين العظميين وهما إسبانيا وفرنسا قد شغلتا عن انجلترا، حيث انشغلت إسبانيا بثورة الأراضي المنخفضة، أما فرنسا فقد شغلت بالحروب الدينية التي اشتعلت في تلك الفترة، فقد كان ذلك في مصلحة انجلترا، كما أن إليزابيث كانت تقوم بإذكاء هذه الصرعات فقد انحازت إلى البروتستنت تؤيدهم في الأراضي المنخفضة وإلى الهيجونوت تؤيدهم في فرنسا، وفي مقابل ذلك عمد فيليب إلى التدخل في شؤون إيرلندا والعمل على إثارتها ضد الحكم الإنجليزي.

وبعد إعلان انجلترا قيام الكنيسة الإنجليكانية كنيسة رسمية في بلادهم، فقد أدى ذلك إلى تقريب وجهات النظر بين انجلترا واسكتلندا حيث شهد عام ١٥٥٩- دون اتفاق- انفصال الكنيسة في كل منهما عن روما، وأدى الإصلاح الديني فيهما إلى نجاتهما من خطر أوربا وسلطانها الروحي والزمني، فقد كانت انجلترا من قبل دولة رومانية كاثوليكية خاضعة لإسبانيا، كما كانت اسكتلندا دولة كاثوليكية رومانية خاضعة لسلطات فرنسا ولا غرابة في ذلك ففي الوقت الذي كانت فيه الملكة ماري ملكة اسكتلندا كاثوليكية متعصبة فإنها كانت زوجة لدوفين فرنسا الذي أصبح فرنسوا الثاني ملك فرنسا في عام ١٥٥٩ وتوفي عام ١٥٦٠ وبعد عامين أصبحت كل منهما بروتستنتية، كما خلصت كلاهما من النفوذ الأجنبي، وكان استقلال الدولتين عاملاً اساسياً في استقلالها السياسي ونجحت هذه الحركة في كل من انجلترا واسكتلندا لأن المنافسة استمرت بين إسبانيا وفرنسا، وقد أدى ذلك إلى التقارب بين انجلترا واسكتلندا.

ورغم ذلك فقد ثارت الخلافات بين الملكتين إليزابيث ملكة انجلترا وماري ملكة اسكتلندا فقد كانت ماري محور المؤامرات التي يديرها ملك إسبانيا وباب روما الكاثوليكيين وكان هدفهم الرئيسي تنصيب ماري ستيورات ملكة على عرش انجلترا من إليزابيث.

وفي اسكتلندا قام النزاع بين الملكة وبين خصومها من رجال الدين والنبلاء واتهامهم إياها بقتل زوجها دارملي Darmly، وثار الشعب عليها عام ١٥٦٧ فلجأت إلى انجلترا لاجئة إلى إليزابيث لا رغبة

في السلام ولكن رغبة في تنحية إليزابيث عن العرش لتعتليه، وقد حل محلها في عرش اسكتلندا ابنها جيمس السادس.

وقد قامت ماري الاسكتلندية بتدبير المؤامرات ضد إليزابيث باستخدام بعض رجال البلاط وكبار الساسة في انجلترا وانكشف أمرها لدى إليزابيث فلم ترى بدأ من سجنها وصبرت عليها تسعة عشر عاماً (١٥٦٨- ١٥٨٧) برغم إلحاح البرلمان بالتخلص منها، وذلك لأنها كانت تخشى عدوان إسبانيا، وقد قررت إعدامها عام ١٥٨٧ بعد أن شعرت أن في بقائها خطراً يهدد عرشها، واعتقدت إليزابيث أن ماري لها ضلع في قيام الفتن والمؤامرات التي كانت تدبر ضدها في السنين الأخيرة.

موقعه الأرمادا ١٥٨٨

كانت لمساعدة إليزابيث للهولنديين في ثورتهم على الحكم الإسباني ثم إمدادهم بالمال والسلاح والعون العسكري أثر في زيادة العداء بين انجلترا وإسبانيا، وإلى جانب ذلك فقد لعبت المنافسة البحرية دوراً في إذكاء هذا الصراع حيث قام فريق من المغامرين الإنجليز في المناطق التي يعتقد الإسبان أنها احتكار لهم فتم إنشاء مستعمرة إنجليزية في فرجينيا بأمريكا الشمالية على يد السير والتر رالي Sir Walter Raleigh.

وقام السير فرنسيس دريك Sir F. Drake بالطواف حول الأرض وعاد إلى انجلترا يحمل الذهب والفضة وكل ما سلبه من السفن والمدن الإسبانية، وكان الملاحون المغامرون من الإنجليز يعمدون إلى تخريب مدن الإسبان في أمريكا وسلبها. وفي عام ١٥٨٧ حمل دريك على ميناء قادس الإسباني بست سفن حربية وقام بعضها الآخر إلى السواحل الإنجليزية وحدث ذلك في وقت قرر فيه فيليب ملك إسبانيا غزو انجلترا وبخاصة بعد مصرع ماري الاسكتلندية على يد إليزابيث في انجلترا.

وبذلت إسبانيا في الإعداد لهذه الحرب نفقات باهظة، وقد اقلع اسطولها الضخم الذي أطلق عليه الأرمادا والذي باركه البابا من لشبونة في ٣٠ مايو ١٥٨٨ بقيادة الدوق ميدينا سدينا Medina Sedina، ولم يكن له دراية بمثل هذا العمل ولكنه كان من الإقطاعيين فكانت ذلك كل مؤهلاته. أما الأسطول الإنجليزي فكان يتكون من سفن صغيرة الحجم ولكن قيادته كانت لقواد بحريين اكفاء.

وكانت خطة الأسطول الإسباني تقتضي أن يتقدم الأسطول في بحر المانش إلى دنكرك ونيوبورت حيث يتم نقل جيش بارما إلى انجلترا لخلع إليزابيث ليخلفها على العرش أبنة فيليب الثاني، ولكن سفن الأسطول كانت ثقيلة بطيئة الحركة وعليها رجال غير مدربين، اما الأسطول الإنجليزي فكان يتكون من عدة سفن صغيرة الحجم خفيفة الحركة وعليها رجال مهرة من القراصنة وغيرهم ممن تعودوا ركوب البحر وأصبحوا سادة في هذا الميدان.

أخذت السفن الإنجليزية تدور حول السفن الأسطول الإسباني وتقوم بهجمات موفقة على الأسطول الضخم فالتجأ إلى الساحل قرب كاليه، ولما أضطره الإنجليز إلى الخروج ثانية إلى عرض البحر لم تستطع سفن الأرمادا ان تقاوم الأسطول الإنجليزي على صغر سفنه التي تفوقت في الحركة والسرعة فتشتتت سفن الأسطول الإسباني بعد معركة كبرى.

كما لعبت الأحوال الجوية دورها في هزيمة الإسبان وتحطيم أسطولهم عندما هبت العواصف العاتية على بحر الشمال والمحيط الأطلنطي.

خامساً: أسرة ستيورات والنزاع الدستوري ١٦٠٣- ١٦٨٨

☒ جيمس الأول ١٦٠٣– ١٦٢٥

كان جيمس بن ماري ستيورات ملكاً على اسكتلندا باسم جيمس السادس وبتوليته على العرش الإنجليزي خلفاً لإليزابيت أصبح يطلق عليه جيمس الول، وهو أول ملوك أسرة ستيورات في انجلترا. وكان عهده فاتحة عهد جديد للوحدة بن انجلترا واسكتلندا، ومع أن هذه الأمنية كان يتطلع إليها ملوك انجلترا وساستها منذ عهد هنري الرابع إلا أنها لم ترق لبعض المعارضين لأن الخلاف بين الشعبين كانت له جذور تاريخية عميقة، ولذلك حرصت اسكتلندا على الاحتفاظ ببرلمانها وقوانينها. وقد أخذت العلاقات بينهما في التحسن تدريجياً.

واتسم عهد جيمس الأول بالنزاع بينه وبين البرلمان، واستمر كذلك في عهد ابنه، فقد كان جيمس الأول يعتقد أن الملك خليفة الله في أرضه وليس لأحد ان ينازعه السلطان، ونشأت على إثر ذلك نظرية حق الملوك الإلهي فكان يرى أن من حق الملك أن يصدر اي قانون دون ان يستشير فيه اعضاء البرلمان وإن كان لا يمانع في قبول ما يقترحونه عليه إذا راق له رأيهم. وكان يدعي انه فوق القانون بحجة انه هو الذي يصدر القوانين وأن الملك لا يستمد قوته من الشعب بل من الله الذي اختاره أباً لشعبه وانه وحده الذي منحه السلطة لتوطيد النظام وإقامة العدل في البلاد فهو مسؤول أمام الله وحده وليس لحد من الشعب أن يحاسبه على أعماله.

وقد أثار الملك سخط الشعب والبرلمان بسبب سياسته الخارجية الودية نحو إسبانيا حيث رأى إن يحدد علاقة انجلترا بإسبانيا فعقد معها معاهدة سلام في عام ١٦٠٤، كما أثار سخط البرلمان بسبب تجاهله للدستور وتحدي البرلمان في اختصاصاته المالية وفي دورهم في إقرار مواد الدولة والتعبير عن آراء ناخبيهم فقط، اما تخطيط السياسة القومية وتنظيم كنيسة الدولة فمن شؤون السياسة العليا التي بيت فيها الملك وحده.

وفي عام ١٦٢١ احتج اعضاء البرلمان على أفكار الملك الاستبدادية فتقدموا باحتجاج سجلوا فيه: "إن حرية البرلمان وامتيازاته واختصاصاته حقوق أصيلة قديمة لا شك فيها توارثها الشعب الإنجليزي، وأن المسائل الخطيرة والشؤون العاجلة المتعلقة بالملك والدولة والدفاع عن البلاد وعن كنيسة انجلترا ووضع القوانين وصيانتها وإنصاف المظلومين كل هذه الموضوعات والمسائل من اختصاص البرلمان يتشاور فيها اعضاؤه ويتناقشون".

وجد الملك ان ذلك يتعارض مع آرائه الدستورية لدرجة أنه مزق تلك الصحيفة من مضابط مجلس العموم، وقام بحل البرلمان، واتهم سبعة من اعضائه بالخيانة العظمى، وكان جون بيم اول زعيم لثورة البيريتان أحد أولئك الذين عانوا اضطهاد الملك. وقد أدى ذلك إلى زيادة الخلاف بين الملك جيمس الأول والبرلمان، واستمر ذلك الخلاف إلى وفاة جيمس الو في عام ١٦٢٥ وخلفه ابنه شارل الأول.

☒ شارل الأول ١٦٢٥–١٦٤٩

كان شارل كأبيه متمسكاً بنظرية حق الملوك المقدس، واستمر يحكم الشعب حكماً مطلقاً، وقد عارض البرلمان تلك السياسة وبخاصة تجاهله التام للشعب وعمله على كسب رضاه، واستمر البرلمان يثبت حقه كلما دعاه الملك للالتئام بعامل من حاجته إلى المال.

وحاول شارل ان يبهر الأمة بتحقيق بعض الانتصارات الحربية في بداية حكمه، فقد اعلن الحرب على إسبانيا، ولكن حملته باءت بالفشل، كما حاول أن يناصر الهيجونوت في فرنسا ضد ريشليو وفشلت الحملة التي أرسلت لمساعدتهم في لاروشيل ونتج عنها تدعيم قوة ريشليو وضياع هيبة الملكية الإنجليزية وسمعتها في فرنسا، وقد اضطره ذلك إلى جمع الأموال بعد الخسارة الفادحة التي أصبحت بها خزينة البلاد. وكان يلجأ إلى وسائل نفرت منه الشعب فقد كان يفرض قروضاً إجبارية على طبقة التجار وأصحاب السفن والصناع وغيرهم من الطبقة الوسطى فكان ذلك سبيلاً إلى ازدياد الشعب الإنجليزي ومطالبته بتحديد نفوذ الملكية لا يسجن أحد دون محاكمة عادلة.

وفي عام ١٦٢٨ اجتمع البرلمان وبمساعدة سير إدوارد كوك Sir Edwared قاضي القضاة في محكمة الدعاوى العامة استطاع أن يحصل على ما يعرف بـ(ملتمس الحقوق) Petition of Right وكان ينص على عدم قانونية الأمور التالية:

١- فرض الضرائب أو القروض دون موافقة البرلمان.
٢- القبض على الأفراد أو سجنهم دون محاكمة.
٣- استخدام قرارات لجان الأحكام العرفية زمن السلم.
٤- إيواء الجند والبحارة في منازل الأهالي دون موافقتهم.

وعندما حاول الملك ومستشاره الديني إدخال مذهب الكنسية الإنجليكانية وطقوسها في اسكتلندا بالقوة، وكانت الكنيسة السائدة فيها تعتمد على عقيدة كلفن فقد رفض الاسكتلنديون اعتناق المذهب الإنجليكاني، كما أنهم كانوا يعارضون حق الملك الإلهي في الحكم ويحقدون على تصرفات رجال الدين الذين كانوا آلة البطش في يد الملك.

وقام الاسكتلنديون بوضع ميثاق (التحالف القومي) عام ١٦٣٨، الذي تعهدوا بموجبه ببذل أقصى جهودهم لمقاومة أية محاولة لفرض أي نظام ديني يخالف العقيدة، وتقدم الاسكتلنديون لغزو انجلترا في نفس العام.

ولما كان جيش الملك شارل في حاجة إلى المال لذلك فشلت حملته عليهم فشلاً ذريعاً، واضطر إلى صلح معهم عام ١٦٣٩، واعتبر ذلك بمثابة هدنة يستعد بعدها للحرب بعد ان يحصل على المال اللازم، ولم يكن ذلك ليتحقق بدون دعوة البرلمان إلى الانعقاد.

ارغم الملك على دعوة البرلمان للاجتماع في ٣ أبريل ١٦٤٠ نظراً لتوغل جيوش اسكتلندا في شمال انجلترا، ولكنه اختلف معه وأمر بحل المجلس بعد ثلاثة أسابيع (٥ مايو ١٦٤٠٩) وهو ما يعرف بـ(البرلمان القصير) بسبب تمسك الأعضاء برفع المظالم التي يشكو منها الشعب وتنفيذ الحقوق. وقام الملك بحملته الثانية على الاسكتلنديين وكانت أشد فشلاً من حملته الأولى مما جعله يسلم بهزيمته ويعود يائساً إلى استدعاء البرلمان بعد أن تبين له أنه لا يستطيع الحصول على المال إلا إذا كان على استعداد للقضاء على ما يشكو منه الشعب.

ولما كان الموقف يتطلب سرعة التحرك بعد أن قام الاسكتلنديون بقيادة الكسندر لزلي Alexander بعبور نهر توبد Tweed الذي قام باحتلال درهام Durham ونورثمبرلند Northumberland وطالب بمبلغ كبير من المال كشرط للانسحاب، فقد أضطر الملك شارل إلى دعوة البرلمان للانعقاد.